النبوءة

لؤي عبد الإله

- ١ -

كعادته كل يوم، أغفى جابر خلف ماكنته. دخل عليه رجل كالح بعمامة بيضاء، وشاربين يرتفع طرفاهما إلى أعلى. قال له، وهو يمرر راحة يده اليمنى على لحيته الكثة السوداء: «ألن تأتي معي؟.. لقد جلبت عطوراً عجيبة، وبهاراً، وأعشاباً سحرية». أراد أن يصرخ به: «اتركني وشأني». لكن عيني زائره ظلتا تترصدانه، وراح يحدثه دون كلمات، بفحيح يتردد إيقاعه في زوايا الحجرة.

استيقظ فزعاً. لاحت له غمامة صفراء، تتوثب فيها دوائر براقة ملونة. ثم تلاشت، حتى تحولت إلى مصباح متدلّ من سقف الدكان المقابل له. فبدا صاحبه تحت المصباح ظلاً متألقاً بكوفيته وجلبابه الأبيض..

تطلع إلى الستر الثلاثة المعلّقة بالجدار. تذكر كم كان مغطى بالبدلات المختلفة الألوان. يأتي زبائنه من بعيد، تجار وملاكون وموظفون كبار. يزدحم دكانه الصغير أحيانا بأربعة منهم. كم نشأت صداقات بينهم. تزوج بعضهم من عائلات البعض الآخر... تلاشى الآن كل شيء. منذ أزمته القلبية الأولى، وإنقطاعه عن العمل أشهرا، راح زبائنه يتخلّون عنه. أصبحت الأزمة تغشاه كل خمسة أعوام. آخر مرة هجمت عليه قبل عام، انفضّ بعدها كلهم عنه. وعاد يستقبل أناسا جدداً، بعضهم من الشباب الذي يفرض شروطه في خياطة ملابسه، ويساومه على السعر حتى نصفه... ذهب ذلك الزمان دون رجعة، حين كان يحدد لزبائنه الملابس التي تناسبهم. إذ لم تأت شهرته التي بلغت حتى البصرة إلا من قدرته على النفاذ الى الصورة المثلى التي سيكتسيها زبونه بعد ارتداء بدلته...

إنه اليوم أكثر مهارة في عمله عما قبل. يستطيع أن يدرز بدلة لرجل دون أن يأخذ قياساته. تكفيه نظرة واحدة...

رنا إلى الطاولة. مرر يديه على قطع القماش المنثورة فوقها. رتبها واحدة جنب الأخرى. سحب من صندوق بلا غطاء موضوع تحت الطاولة قطعة أخرى. شرع في قصّها، فارتفع صوت مبحوح من الخارج: «بعد غد السحب... جرّب حظك. الجائزة الأولى...».

خفق قلبه، وهو يلتقط العشرة آلاف دينار. توقف عن عمله، وراح يتابع بائع اليانصيب، حاملا بين يديه لوحة خشبية، عُلّقت فوقها الأوراق. مرّ قدّامه ملقياً عليه نظرة استفسار. ثم مضى في طريقه.

رجع إلى ماكنته، لكن الصوت ظل يرتج في نفسه: «عشرة آلاف دينار». كم استطاع أن يدخر عبر أربعين عاما من العمل في دكانه هذا؟... اليوم، وبعد المرض الطويل، والانقطاع عن العمل من وقت إلى آخر، يجد نفسه قريبا من الافلاس.

ابتدأ أبو علي، العطار الذي يقابله، حياته، بائعاً متجولا، بعربة يد وضيعة. وهو يستطيع اليوم أن يشتري بستانا، رغم رثاثة ثيابه، وتمسكنه، وشكواه الدؤوب... أقرضه خمسين دينارا، فاكترى هذا الدكان، واشترى البهار والعنبة. ساعده صديقه السيخي راقي، الذي جاء مع من جاؤوا من الهنود والانكليز في زمن الحرب.

راقي الرجل الغريب، الأعزب، المولع بالسحر وقراءة المستقبل. عيناه مصباحان يخترقان العتمة. تعرّف عليه عند أحد أصدقائه، حيث كان يقوم بالتنويم المغناطيسي. ما ان رآه حتى تسمّر إزاءه لحظات. قال له بلكنة أجنبي: «ستغلق دكانك إلى الأبد عندما تبلغ السبعين». أجابه ضاحكا، وهو يربت على كتفه: «كثيرة هي السبعون عاماً...».

لكن راقي، الذي أصبح صديقه الحميم، غرق في سفينة شراعية عائدة إلى بومبي، بعد هبوب عاصفة عنيفة قلبتها وسط اليم... تعلّم منه التنويم المغناطيسي وقراءة الكف. كشف له أسرار الروح المخفية عن الأبصار، كيف يستطيع الرجال ان يمشوا فوق الجمر، ويضربوا أنفسهم بسفافيد مدببة؟ فسّر له كيف تحدّد الأبراج مصائر الخلق، ويحدد شكلْ الأصابع قدراتهم، علّمه الهندية كي يقرأ الكتب الروحانية. ثم تركه وسط الطريق وحيدا. سعى لإتقان التنويم المغناطيسي، فلم يفلح. نجح في التأثير على الناس بعينيه. جلا قدرة الروح على التحمل والتركيز في الأشياء.

«الكون مملوء بالأرواح. كل كوكب يسكنه جنس من الملائكة مسؤول عن البشر... ألا ترى أن البحر يحتوي على كل المخلوقات الساكنة فوق البر؟ فرس البحر يقابل الحصان والفقمة تنبح كالكلب... ليس هنالك سوى الإنسان لا شبيه له في البحر». يحدِّثه راقي، وعيناه تسجوان بعيدا، حيث الأفق يلتقي بالخليج المتلألىء، المترامي الأطراف...

رأى جابر نفسه في سيارة مارسيدس بيضاء، تنساب كسفينة وسط بحر هادىء، يقودها رجل أنيق، ويجلس هو في المؤخرة. كانت مظاهر الأبهة بادية عليه، تلتقي عيناه بالعمارات المتراصفة على جانبي الشارع العريض، في مدينة غريبة عنه.

وقفت السيارة فجأة، فالتفت اليه سائقها. قابله رجل يشبه راقي، تفكك وجهه إلى ثلاث كتل معتمة، يصله منها اللغط، ثم اتضحت معالمها تدريجيا. كان ثلاثة صبية يقفون إلى جانب دكانه، مندهشين لحاله، يتبادلون الهمس والضحكات عليه. حدجهم بتلك النظرة التي اعتاد أن يفزع بها الصغار، ففروا منه.

شعر بالرضا عن نفسه، وذاكرته تستعيد الحلم، باحثاً عن مغزاه... ترمز سيارة المارسيدس للغنى والرفاه... ما الذي دعا راقي للظهور معه؟... لم يكن السائق إلا رجلاً آخر ملتحيا. المدينة التي رآها تنبض حياة. لم تكن مقبرة أو بحراً أو صحراء قاحلة... كم مضى عليه وهو قابع في حفرته هذه؟... التعب الذي يحاصره من حين إلى آخر ناجم عن بقائه في حجرة ضيقة زمنا طويلا. رغم أن مرض القلب قد حلّ به، لكنه كالأمراض الأخرى له علاج، فصمّام قلبه الضيّق يمكن توسيعه، لتعود اليه صحته. لكن عملية كهذه يلزم إجراؤها في الخارج، وتتطلب نقوداً كثيرة... إنه لم يزل محتفظاً بحيويته، أسنانه سليمة، وبصره حادّ. لم يضع سيجارة في فمه. شرب الخمر قليلا في شبابه، ونام اربع مرات مع المومسات طيلة عمره، فأصابه السيلان. كان المرض تحذيراً له كي يبتعد عن المرأة...

سمع صوت راقي آتيا من بعيد: «ستغلق دكانك إلى الأبد...»، مختلطا بصوت بائع اليانصيب: «الجائزة الثانية: خمسة آلاف. الثالثة...». خادمته العجوز عرضت مراراً عليه نساء، يتُقن للزواج به. لكنه أغلق اذنيه لها، لم تأته الإشارة حلماً أو حادثا، يدفعه لاتخاذ قرار كهذا...

أخرجه المرض الذي حل به من عزلته. أيدٍ كثيرة مدّت اليه عندما انفجر وخز قوي في صدره، لكأنه سكين غرزت بين أضلاعه، ودارت الحجرة به دون توقّف. أراد أن يمسك بماكنته، لكن أصابعه تحوّلت إلى خشب يابس. سقط على الأرض وعيناه مغرورقتان بدمع، تتقافز عليه كريات الضوء البنفسجية. تأتيه أصوات متداخلة مع بعضها، وتمسكه أذرع قوية، ثم تحمله بعيداً عن دكانه إلى المستشفى...

زاره كل من في السوق، وظل ابن اخيه حسن مواظباً على زيارته كل يوم، كان الألم يحزّه وهو يجد نفسه سهلا، طيعا، بين أيدي الآخري. تهدّم، بضربة واحدة، كل ما بناه من تنظيم لحياته، واستقلال عن الآخرين. كفت الخادمة عن عرض الزواج عليه، ومنعته كبرياؤه أن يطلب مساعدتها. فمضت الأعوام سراعا. وحل به المرض ثانية، وثالثة، ولا يعلم إلا الله ما سيحل به في المرة القادمة.

رفع رأسه، فالتقى ببائع اليانصيب شاخصاً أمامه، راسماً على شفتيه ابتسامة ذليلة. كان جسمه صغيرا ونحيلا لا يناسب عمره. ظهرت في فمه ثلاث أسنان صفراء معوجة. وتجمّع الزبد الأبيض على طرفي شفتيه، بعينين تسوّرتهما أهلّة حمراء: «ألا تشتري مني بطاقة؟». تطلع جابر اليه قليلا. ثم عاد يدرز الإبرة بقطعة القماش، كأن لم يسمع شيئاً. اعتاد على الصمت حين

يقدّم له عرض، يتجاهل سائله، يتظاهر في الانشغال بشيء آخر. يقلب أفكاره يمينا وشمالا، يسعى إلى سماع صوت من داخله يدعوه للرفض او القبول.

- ما الذي دعاك للمجيء إليّ؟.
- لا أدري.. هجست بأنك ستربح. وأنت كريم، ولن تنسى مكافأتي.
- لِمَ لا تأخذ البطاقة لك؟.
- بائع الحظوظ ما عنده نصيب فيها يا عمي... (اجابه مكركرا).
- تعال غداً في الصباح.
- بكرة آخر يوم.. علي أن أرجع الأوراق قبل العصر.

انقلب جابر إلى عمله. أراد أن يصرخ بالبائع: «اذهب وابحث عن غيري». لكنه وجد كلماته تنقلب فوق لسانه إلى موافقة بالشراء.

تخيّل نفسه بائعاً لأوراق اليانصيب، يتجول في هذه السوق، متوسلا إلى الباعة والمارّة أن يشتروا منه.

سينهكه المرض يوما، فتعجز يداه عن العمل، ثم يصيبه الإفلاس، فلا يجد منفذا سوى التسوّل. التعب الآن يغمره: أنفاسه ثقيلة، ألم خفيف ينخزه في صدره تحت ثديه الأيسر. همس وهو يتطلع إلى المصباح المعلّق فوق رأسه: «عليّ أن أنتظر المعجزة...».

- ٢ -

إنسلّ النهار من السوق، فخفتت خطى عابريه. أغلق جابر دكانه. وقف قربه، متحيّراً أيّ مسلك يتخذ. فابن اخيه حسن يقيم في المدينة إلى يمينه، ويسارا يسكن اخوه قاسم. رأى خطاه مندفعة نحو بيت أخيه، تخامره رغبة مبهمة للالتقاء به.

قطع السوق المسقوفة بجذوع النخل وسعفه، فغمر لون السماء الأزرق الغامق عينيه، وأتته رائحة الأشنات والأعشاب المخضلة في الجدول، الذي تعلوه قنطرة خشبية. تطلع يمينا، وهو يعبرها، حيث أطلت على جانبيه رؤوس النخل الساكنة، كأنها خطوط لوحة قاتمة.

قابلته، في ساحة ترابية، أكواخ مبنيّة بالطين وكسر الأحجار، يسكنها فلاحون مهاجرون، يشتغل أغلبهم عمالا موسميين في جني التمر. يقبع، قريبا منها، كوخ مسوّر بسياج من العليق وصفائح القصدير.

دفع بابه. واجهه فناء ترابي صغير، تليه سقيفة، فحجرة. كان الهواء عطناً برائحة ذروق الدجاج الذي هجع في قنّه.

«اهلاً وسهلا بالحاج». جاءه صوت خفيض، مختنق، من الحجرة. ثم برزت زكية، زوجة أخيه، امرأة في الخمسين، ناحلة، يحتفظ وجهها بملامح جمال غابر، تلفّ رأسها بعصابة سوداء. قالت: «منذ فترة ما زرتنا.. كيف صحتك الآن؟». أضافت وهي تغضّ طرفها عنه: «ابو حسن ذهب ليشتري الخبز...». أخرجت له كرسيا، وضعته قرب الحصيرة المفروشة تحت السقيفة: «سأعدّ لك عشاء خفيفا كما تشتهيه». قال جابر: «لا تتعبي نفسك».

سمعا ضحكة قوية، متقطعة بسعال وكلمات مدغومة. ظهر قاسم أمامهما، يقزل في عناء، مستنداً على عصا من التوت، يتبعه صبيان حافيان، يحمل أحدهما الخبز. صافح جابر أخاه، وعيناه تترصدان الصغيرين، إذ ظنهما من الثلاثة الذين أيقظوه في دكانه. فتوجس شراً منهما. قالت زكية:

- اذهب واغتسل... منذ الصباح لم تمس يداك الماء.
- حاضر.. (قال قاسم) ولكن حضّري نفسك هذه الليلة.

انفجر بضحكة، دمعت منها عيناه. تمتمت زكية في حياء لجابر: «إنه مجنون». مدّ قاسم يده اليمنى في جيب جلبابه الأبيض المبقع بالزيت، فأخرج قطعتي نقود، وزّعها على الصغيرين: «غداً تعالا في الصباح، وخذا البطّ معكما ليعوم».

مضى نحو برميل ذي حنفية، موضوع في زاوية الفناء اليسرى. قرفص جنبه، وراح يغسل وجهه، وفمه، وذراعيه. قال جابر:

- كيف هو عمله الآن؟.
- يقول إنه ما زال يكتب العرائض كالسابق.
- إذا احتجتما لشيء فأنا موجود.
- ليحفظك الله لنا... حسن جلب لي البارحة ثوباً جديداً.

صاح قاسم بصوت حادّ، مرتجف، من طرف الفناء الآخر:

- إنها المرة الوحيدة التي يشتري لك فيها شيئا. وستظلين تحكين بذلك طيلة عمرك.
- طلب حسن مني أن أذهب عنده لكنني رفضت... كيف أترك عجوزاً مثلك وحده ينفق نقوده على صغار الآخرين؟
- اذهبي اليه، فهو في حاجة الى خادمة مطيعة مثلك.
- أنت تخرِّف.
- أنت متواطئة معه. اقنعتني أن أسجّل بيتي باسمه كي لا تشترك شقيقته وزوجها معه بالميراث... والنتيجة أنه وضعنا في الشارع.

- لكنك تستطيع أن تقيم دعوى عليه ليعطيكما نفقة (قال جابر).

- لا أريد منّة من أحد. أنا ما زلت قويا، وسأتزوج قريبا.

غمز لجابر ضاحكاً. أضاف قاسم: «ليس هناك كاتب عرائض يجيد خط الرقعة مثلي... الشباب اليوم يكتب بلا قواعد ولا ذوق».

غمغمت زكية: «رجله في القبر ويفكر بالزواج».

- ٣ -

ترك جابر بيت أخيه، فاستقبله هدوء يعكره صرير الجنادب. بانت أشجار النخل المبثوثة في تلك البقعة ظلالا عملاقة جمدت عن الحركة. كان نثار الضوء الخافت الآتي من رقعة الماء الملأى بالنجم كافيا لرؤية الطريق. تنفّس بعمق، حابساً الهواء في صدره لحظات. ألقى نظرة الى الباب، وإحساس يخامره بأنها المرة الأخيرة التي تطأ قدماه هذا المكان. عادت صورة بائع اليانصيب اليه، ثم خفتت، تاركة وراءها صوته المختنق المتقطع: «الجائزة الأولى...».

مشى خطوات، والضجيج يحاصره. توقف قليلا. ركز ثانية أنفاسه بانتظام، فتلاشى الصرير. وصلته رائحة القداح العبقة، المنتشرة أشجاره في بساتين النخل، الواقعة خلف الأكواخ، يليها النهر المتسع، الذي يقود الى الخليج. تذكر السفن الشراعية هناك، حبالها المزدانة بطيور البحر، أشرعتها البيضاء الندية بالطل الخانق، بحارتها العراة المنتشرين فوقها، يلهجون بلغات لا يفهمها.

عبر القنطرة، وعيناه تصافحان الضوء الشاحب، المنبعث من مصابيح معلقة على أعمدة خشبية مائلة للسواد. امتلأت نفسه وحشة وضيقا، وهو يقترب من داره المحاذية لدكانه. اخترق السوق المقفرة إلا من كلاب سائبة، تتحلق جماعات، فألقت بعضها نظرة عليه. فتح باب بيته. استقبله الصغير، فبانت أرضيته، بطابوقها الأصفر المهشم، المتشقق، تدب فوقه زيزان حمراء.

دخل حجرته الصغيرة. كان أمامه السرير المجاور للجدار، تعلوه كومة من الأغطية والشراشف. انتشرت على الأرض قصاصات ورق وقماش، سحابات ممزقة، وبكرات فارغة. ثبتت على الجدار المجاور للسرير أربعة رفوف ملأى بالكتب القديمة، المائلة إلى الصفرة، تغطّيها طبقة من الغبار. تكدّست دون ترتيب. وألقيت تحتها كومة من الكتب، بان عنوان أحدها (الأبراج) والآخر (أشباح وأرواح). وضع دولاب خشبي كبير، جنب جدار الباب، تفوح منه رائحة النفتلين وانتصبت إلى يمين السرير طاولة فوقها مصباح أحمر.

دبّت الفوضى في حجرته، منذ توقفت خادمته عن المجيء، فانقطعت رغبته في المطالعة. كان يدفع النقود أحيانا لبعض الفتية الفقراء، سعياً لتنويمهم في حجرته. منهم من تظاهر بالنوم ليكسب ثانية، لكن لعبتهم لم تنطل عليه طويلا.

أشعل المصباح الأحمر، الواهي، وأطفأ الآخر. ملأ الحجرة ضياء خافت، أحال أشياءها إلى كتل ضبابية، تختلط الحمرة فيها بالسواد. اضطجع على سريره محدقا في المصباح. اعتاد تنويم نفسه، بعد عجزه مع الآخرين. وضع، فوق الطاولة، دفتراً كبيراً، مفتوحا على صفحة بيضاء. تنتابه، أحيانا، لحظات من الصحو الممزوج بفقدان الوعي. فينهض من فراشه، ليخط عليها كلمات، يفسّرها صباحا، معتبراً إياها كشفاً للمستقبل.

اتسعت الحجرة به. اختفى الضوء الأحمر، وحل محله ضوء النهار. تحولت ظلال جدارانها إلى أشجار وارفة الخضرة، والسقف الى سماء زرقاء صافية. انقلب الفراش الى عشب أخضر، ناعم الملمس. تراءى له الدولاب شجرة موز، ذات أوراق طويلة، من وسطها، خرجت امرأة بلا ملامح واضحة، ترتدي ثوبا ارجوانيا شفافا. تقدّمت اليه بتمهل، ثم جلست قربه. اتضح وجهها لحظة؛ فذكرته بتلك الفتاة التي نام معها قبل سنوات، في مبغى، تملأه النساء والعطور والضحكات. تبدّى وجه آخر له، شبيه بوجه كريمة التي رغبت الزواج به. أخبرته الخادمة يوما، أن أرملة ضابط شرطة تود لقاءه. أصابه انفعال شديد. صاح متوعدا: «سأطردها إن وضعت قدميها في الدكان». لكنها جاءته برفقة ابنها الجميل. دخلت دكانه، واضعة نقاباً أسود فوق وجهها. قالت وهي ترفعه: «أريد أن تعمل بدلة لشاكر». داعبت شعر صبيّها بكفّها اللدنة، وارتسمت على محياها ابتسامة عذبة: «سمعنا أنك أحسن خياط في البصرة كلها...». خلّفت كلماتها وشوشة واضطرابا في حواسه، جعلت أنفاسه تتلاحق فوق صدره، رغم أنه ظل يختلس نظرات إلى جسدها المكتنز، المشدودْ...

شق راقي الجدار، فهربت المرأة منه. أشار اليه بصوت غليظ: «في أعماق كل إنسان يسكن إلّه نائم، يمكننا أن نوقظه. لكن علينا أن نقتل رغباتنا أولا».

تلاشى راقي وسط وهج الدخان الأحمر المتصاعد من المصباح، فاستعادت الحجرة شكلها. تقلّص الضوء الى بصيص نار خافتة، ثم تحولت الى نقطة مضيئة، تنبعث من ثقب في الجدار. وجد نفسه في حمام كبير، يملأه ضباب شفاف، تتضخم فيه الأصوات،

وتظهر الأجساد العارية وسطه، كأنها اشباح، تخلف وراء خطواتها رنينا. يقدم من بينها حسن، بجسده النحيل، يلف وزرة حول بطنه، يحمل بيده اليمنى ورقة نقدية زرقاء. يقدمها له، ثم يمضي الى الباب خارجا منه. يتطلع فيها، فيرى رقمين مكتوبين بخط واضح: سبعة، وخمسة. يتلفت حوله. يلمح بائع اليانصيب واقفا في الطرف الآخر من الحمام، خلف دكة الاسمنت الدائرية. ينظر ثانية إلى الورقة، فيجدها بطاقة يانصيب...

هب من رقدته. سجل العدد الذي طالعه، بأرقامه السبعة، وهو يدمدم: «سبعة كواكب، سبع سموات، وسبعة أيام».

جذبه الكرى ثانية، فرأى نفسه، يهبط في درج مرتفع، سلالمه عريضة، يفضي الى مرج فسيح. ينتصب فيه مسجد من الرخام الأبيض اللماع، المتلألىء تحت وهج الشمس. تملأه الرغبة في الدخول اليه. ما ان يصله، حتى تنبثق من نوافذه الكثيرة طيور رمادية، فتغطي الفراغ الذي يلفه. يسمع حفيف أجنحتها المتواصل، ثم ترتفع إلى السماء، مكونة شبكة، تتسرب من خلالها أشعة الشمس المتكسرة، نثارا متوهجاً، متقطعا...

أفاق من نومه، وفرح فياض يغمره.

- ٤ -

حل النهار في حجرته، متغلغلا عبر الكوة الصغيرة الملاصقة للسوق، فاتضحت حدود أشيائها. تسربت اليه أصوات العابرين وخطاهم، مختلطة بقرقعة عارضات الحوانيت، المرفوعة الى أعلى.

ألقى نظرة إلى دفتره، فرأى العدد مبتدئا برقم ٧، كان الرقم الثاني والثالث مشوشا فيه.. جاءته العلامة أخيرا، سيغلق دكانه مثلما تنبأ راقي، تاركا وراءه سنوات العمر الضائعة. يسكن بيتا تغمره الشمس، وتعتني به امرأته، لتكن أرملة أو مطلقة... تناول فطوره بشهية. ثم راح يرتدي بدلته. جاءه صوت البائع: «جرّب حظك... غدا السحب». وجب قلبه. اسرع الى باب بيته، التقى به واقفا قبالة دكانه، يتطلع مندهشا الى عارضته المغلقة.

« تعال هنا». صاح به، فطفح السرور على وجهه. تقدم اليه مرتبكا. بادره جابر قائلا: «ادخل الى بيتي».

أقعده على كرسي من الخيزران في حجرته، يقابله كرسي آخر، وبينهما طاولة دائرية صغيرة.

« رأيتك البارحة في الحلم، وأنا أعطيك كأساً من الماء». قال بائع اليانصيب، وعيناه تدوران مذهولتين بين ركام الحجرة نصف المعتمة، حيث اخترقها شعاع رقيق من الضوء تزدحم فيه ذرات الغبار.

فكر جابر بالأحلام، وقد ملكته الدهشة لما رواه الآخر. «من نراهم في الحلم ليسوا إلا أرواح الناس تزورنا، لتنبئنا بما يخبئه المستقبل لنا... كل الأرواح تمتلك المقدرة على كشف الغيب. كأس الماء هي الجائزة الأولى. إذ من الماء كل شيء خلق، وسعيد الحظ من يحظى بالماء في حلمه».

- ضع أوراقك على الطاولة، وانظر في عينيّ.
- أحلف لك أنني رأيتك في الحلم.
- لا تخف.

أطاعه الآخر منكمشا على كرسيه، وغاصت عيناه في محجريهما. حدق جابر فيه دقائق، فانتابت جسده ارتعاشة شكمت فمه.

« اسحب الآن ورقة واحدة».

أخذها جابر منه، فقارن عددها بالعدد المكتوب في دفتره، تحت بريق المصباح الأحمر.

صاح بصوت حاد: «إنها المعجزة».

أمر بائع اليانصيب أن يسحب ورقة أخرى، ولعدة مرات. قابلته أعداد تحمل نفس أرقام عدده. مرر عينيه فوق كل البطاقات، فألغى الأرقام نفسها فتح خزانة نقوده الصغيرة، المركونة تحت سريره. عدّ ما فيها، فوجده مساوياً لثمن البطاقات كلها. كانت العلامة قد حلّت...

قال جابر: «سأعطيك هدية لن تنساها عندما تأتيني بالبشارة».

نهض بائع اليانصيب، وساقاه تهتزان، فأمسكه جابر من ذراعه. قال له وهو يربت على كتفه بيده الأخرى: «ستأتيني بالنبأ اليقين، ولا تخبر أحداً بما جرى بيننا».

تمتم بائع اليانصيب: «سأذهب بنفسي الى البصرة لأحصل على الصحيفة حالما تظهر». أضاف حينما أصبح قريبا من الباب: «ليجعل الله كل الجوائز من نصيبك، إنه سميع مجيب».

- ٥ -

عبر الليل طويلا وثقيلا عليه. أغفى خلاله، ولدقائق، مرات قليلة. رأى نفسه في إغفاءته الثانية على ظهر سفينة شراعية، مرتديا ملابس بيضاء، ويقف الى جانبه راقي، تعول الريح

حولها، فتتمزق الأشرعة البيضاء بها. تتكسر أمواج البحر على سطح السفينة، تاركة وراءها رشات من الزبد الأبيض.

كان هناك رجال فوقها، غير مبالين بما يجري. يشبه أحدهم اخاه، يلمحه رغم الدجنة التي تلفهم، مقرفصا في زاوية، يمضغ لبانا.

هدأت الريح فجأة، وساد الكون هدوء مطلق. ثم علت البحر ملايين الشموع الطافية على صفائح خشبية، فاشتعل البحر بها.

قفز راقي الى البحر، ومشى فوقه، بين صفّين من الشموع، حتى غاب في الأفق.

فزّ من نومه على طرقات الباب، فظن أن بائع اليانصيب واقف خلفه. ألقى نظرة إلى الخارج، فلم يلمح أحداً في السوق. كان السكون يغلفه بعمق، حتى خيل اليه أنه يراه في حلم طويل لأول مرة.

راوده الشك بأن بطاقاته قد سرقت منه. أخرجها من خزانة النقود. وضعها على الطاولة، ثم كتب أرقامها على ورقة كبيرة...

يأتيه النهار مرة أخرى، وبائع اليانصيب قد نكث بوعده. هل دهسته سيارة؟. مرض ألمّ به؟. أو؟...

يحل النهار أخيرا، وتبدأ الحياة في الخارج من جديد. فتح أبو علي دكانه. ها هو يسمع حديثه مع العابرين، يساومهم على ثمن العنبة التي نقصت في السوق، يقسم لهم بأغلظ الايمان، مؤكدا على جودتها... وبائع اليانصيب لم يأته..

ودّع، البارحة، باعة السوق. تجنّب الذهاب الى بيت قاسم، خشية من سخريته وضحكاته المجنونة. جاءه تاجر الأثاث العتيق، واتفق معه على شراء محتويات دكانه.. بائع اليانصيب لم...

ترتفع الأصوات حادة في السوق، تزداد خطوات رواده فيه. إنه الضحى الآن... أصبحت المدينة غريبة عنه، كل ما يشدّه اليها قد تقطّع... شعر خلال اليومين السابقين أن له جسدا خفيفا، كأن أجنحة خفية تحمله. اختفت الآلام في صدره. زال ضيق التنفّس عنده. يأتيه صوت المؤذن معلنا عن صلاة الظهر ترتفع الشمس الى سمت السماء، وبائع اليانصيب لم يظهر...

نهض من سريره، ودوار يمسكه. عاين، في المرآة، شعر رأسه المطلي بالصبغ الأسود، وكحل أجفانه. «لولا هذا الورم الخفيف الذي يحيط بعيني لبدوت في الأربعين...». عليه أن يذهب لشراء الصحيفة...

- ٦ -

تهلّلت أسارير ابي علي، حينما رآه قادما نحوه. توقف الآخر منذ سنوات عن التحدث معه، عدا تحية الصباح والمساء. وظل الخجل ملازما له كلما بادر في التحدث معه. يشعر أن جابراً متفوّق عليه كثيراً، يعرف القراءة والكتابة، يتكلم بلغة أخرى لا يفهمها، يرتدي كل يوم بذلة نظيفة، بخلاف الآخرين الذين يتلفّعون بملابس تقليدية كملابسه... كان جابر، قديما، يضع قبعة. يختلط بأجانب وأثرياء، يأتون من بعيد لزيارته. كان يدور آنذاك بعربته على البيوت، مبدلا الملابس العتيقة بالزجاجيات. كم مرة دعاه جابر إلى بيته النظيف، المنظم، لتناول الغداء عنده، يركن عربته في رواق بيته. ويجلس وحيدا في المطبخ خلف طاولة. تقدم الخادمة له الطعام، وتجبره على الأكل بملعقة نحاسية.

لم يدخل الى غرفة جابر سوى مرتين. حيّا في خجل أصدقاءه «الأفندية» الذين كانوا يحتسون الشاي من قارورة خزفية...

تبدلت الحياة اليوم، وحال جابر تسير من سيّء إلى اسوأ. تحول بيته، الذي شاهده وقت مرضه، الى خرابة. اما هو، فلديه قصر قريب من الشاطىء. ابناؤه الخمسة يذهبون الى المدارس، وكبيرهم سينهي دراسته الجامعية هذا العام...

انقضت ايام الفقر والجوع الى الأبد، لكنه ما زال يخجل من جابر. ينتابه شعور بالذنب كلما التقى به، لكأنه مسؤول عما حل به من بؤس. لو يقبل دعوته للمجيء الى بيته، مرة واحدة. كم يودّ أن يريه ما يمتلكه، ليشعره أن لا فارق يفصلهما اليوم.

فرح كثيرا، حين أخبره بنيّته على السفر. إذ ظل جابر كابوسا متسلطا عليه، يشعره بدونيته، كل يوم، عنه...

فكر قبل سنوات بتبديل دكانه، لكنه خاف من سخط جابر عليه، إذا حسب فعله هذا نكرانا للجميل، فألغى فكرته.

- كيف حالك؟... سأله جابر وعيناه تتسمران فوق عينيه.
- بخير يا عم.
- ألم تر بائع اليانصيب؟
- منذ شهر ما رأيت أحداً منهم.
- أنت متأكد مما تقوله؟
- هل يمكن أن أكذب عليك يا حاج؟.... إذا احتجت لشيء.. فأنا أخوك في الدين.

أضاف عبارته الأخيرة، بعد أن لمح امتعاضا على عيني جابر

الحمراوين. خشخش دون إرادته بقطع النقود، فرمقه الآخر بنظرة نارية أجبرته على إخراج يده من جيبه. مضى جابر دون أن يحييه، تاركاً إياه في دوامة الامتعاض والخجل من نفسه.

- ٧ -

غامت الدنيا في عينيه، اندفعت أنفاسه ينشيج متواصل من فمه وأنفه. بين العشر الجوائز الأولى، لم يقرأ عدداً مماثلاً لما لديه.

رمى الصحيفة جانبا. القى بنفسه على السرير، فارتجّ تحت وطأة جسده. تذكر عبارات الوداع المؤثرة التي تلّقاها من الآخرين، احتضان بعضهم له، الدموع التي ذرفها أبو علي... كيف سيواجههم غداً، عندما يفتح دكانه، ويجلس خلف ماكنته؟ أي نكات سيصوغونها عليه حالما يكتشفون قصته؟ ستظل المدينة تلوك ما جرى له جيلا بعد جيل.. هو الذي يهابه الآخرون، ويستشيرونه بملمّاتهم، يوقعه رجل أبله في حبائل مصيدته. ترسّخ في نفسه إحساس قويّ، بأنّ ما يشدّه الى الحياة خيط رفيع، لو يفوز بجائزة تحمل أقل مبلغ: خمسة دنانير فقط! ستمنحه شرارة الحظ هذه دفعاً قويا للتشبث بها. يتذكر عرض زبون ثري من البصرة بأن يفتح مشغلاً للخياطة، يكون مديره، مقابل نصف الربح. رفض آنذاك عرضه، لكرهه أن يكون مرؤوساً من آخر... متجره في سوق الهنود. سيذهب، ويبحث عنه. لكنه يحتاج الى بصيص أمل. أن يتأكد أن الإنس والجن ركز تفكيره. نظم أنفاسه، شهيقاً، فحبس الهواء في الصدر نصف دقيقة، ثم زفيراً عميقاً. لكن الضجيج ظل يحاصره...

حملق في المرآة. ظهر له رجل عجوز، مترهل، بشعر منفوش، أبيض، وغضون متشابكة فوق وجهه، يحرك فمه دون صوت، ذكره بعرائس الدمى... هل هو الشيطان قد حضر قدامه؟.. رفع رأسه الى السقف. بانت له خطوط الأرضة كأنها عروق نابتة فيه. تتدلى أنشجة العنكبوت منه. شعر ان السقف منخفض أكثر من قبل، يكاد أن ينطبق عليه. أعاد النظر إلى المرآة. استقبله شاب وسيم، يتقطّر الدهن من شعره المفروق. لكن الصورة اختفت سريعا، ولاح له الشيخ المنهوك، بأنفاسه المتقطعة، الثقيلة، مرة أخرى. ضرب المرآة بكرسي قريب منه، فتكسّرت قطعا، تاركة وراءها صليلا قويا. صاح بصوت منهزم: «لقد خدعت اذاً».

أسقط أكداس الكتب الموضوعة في الرفوف. رفع المصباح الأحمر وألقاه على الأرض بعنف.. قلب الكراسي والطاولات وفراشه.

فتح باب الدولاب الأيسر. مد يده الى الطابق الأعلى الذي يعتلي رأسه. خشخشت بين أصابعه قطع معدنية وزجاجية، هدايا قديمة، تذكارات عمرها نصف قرن. أمسك جسما صلبا، باردا. صرّ بأسنانه: «سأقتل ذلك القزم اللعين...».

- ٨ -

فاجأه هدير السوق، دوامة تتلقفه، فيندفع يمينا، بخطى واهنة، مرتعشة. سأل العديد من الباعة إن كان احدهم قد شاهد بائع اليانصيب. أعطى أوصافه كاملة، تفاصيل وجهه، ملابسه، صوته. لكنهم أنكروا رؤيته.

مضى حتى نهاية السوق. استقبلته الشمس قرصا متوهجا، تلوح من خلف صفّ البيوت والدكاكين المتجاورة على الطرف الآخر من الشارع الرئيسي، الذي يوصل الى الميناء.

عبرت شاحنة ملأى بالطابوق، وأخرى معبأة بقناني الغاز المعدنية، تاركة خلفها دخانا وضجيجا. فجرّ خطواته إلى الداخل، حيث الظلال الرطبة الساكنة في جوف السوق، تتقاطع بينها أشعة متسلّلة عبر ثقوب السقف، يتطاير فوقها الغبار الرمادي، المشعشع بالضياء، ببطء.

لم يتفقوا جميعهم ضده.. سيغلق دكانه، ويغادر قريته، حالما يقبض على تعويذة الحظ بيده.

أمعن النظر في الصحيفة، واضعا فوقها عدسة مكبرة. قارن أعدادها بما لديه، فلم يجد سوى عدد تتماثل أرقامه مع عدد عنده، ويختلف بترتيب واحد بين رقمين عنه. وضع خطا تحته. دار في الغرفة قليلا، قارن ثانية بين العددين: كان الاختلاف راسخا تحت عينيه.

سمع كركرة خلف باب حجرته، كأنها ضحكة بائع اليانصيب المختنقة، فانقضّ على أكرة الباب. ظن أن عينين تلتمعان وسط العتمة. مضى في الرواق حتى آخره، فأفزعه فأر قفز بين ساقيه...

نازعه الشك بحقيقة ما حدث له. إذ يخلط أحيانا بين الواقع وأحلامه. قد يكون البائع فكرة زرعها إبليس في رأسه، أو روحا شريرة تقمصت شكلا إنسيا، فراودته عن نفسه. لكن الأرواح لا تسلب أشياء مادية...

سحب خزانة النقود من تحت سريره. سيرى الآن نقوده مصفوفة فيها على ثلاث رزم.

«قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إلّه الناس، من شرّ الوسواس الخنّاس، الذي...». ظهرت له البطاقات الصفراء،

مرسوماً على كل منها، صورة بناية كبيرة، مكتوبا فوقها: شاركوا في بناء المستشفيات.

حمل الأوراق بإبهامه وسبابته الى أعلى، ثم تركها في الفراغ، فانتشرت فوق البلاط، تاركة خلفها حفيفا ثقيلا.. كيف وصلت هذه الأوراق الى حجرته؟. لربما هو خداع البصر الذي يصيبه أحيانا، بفعل الجن الذي يسكن بيته منذ سنوات.

أخذ بطاقة من الأرض وحدق فيها دقائق. ثم أغمض عينيه قليلاً: «تحولي الى هيئتك الأولى». لكن اللون الأصفر والملمس الخشن ظلاّ لاصقين بها. أعاد نظره إلى الأوراق فوجدها تتحرك، كأن ريحاً خفية تسوقها... بائع اليانصيب يجلس الآن بين أبنائه فرحا، يحدّثهم عن الخياط المغفل....

اضطجع على فراشه، غطى جسمه حتى مؤخرة رأسه، قطع أفكاره، سعى للنوم للانكماش على نفسه، لنسيان ما حدث له، لإلغاء واقعه. كانت وشوشة تملأ أذنيه، أصوات العابرين تتفكك، تتحول الى هدير منتظم، يزداد عنفا، فيجبره على النهوض، والابتعاد عن النافذة، الى طرف الحجرة البعيد.

عبر ثلاثة دكاكين. التفت يساراً الى زقاق متقاطع مع السوق، نصف معتم. لاح له بائع اليانصيب، في زاوية منه، متكئاً على الجدار، بملابس جديدة. لمحه، فانقلب على عقبيه.

أوسع جابر خطاه، ضاغطاً على مقبض المسدّس الذي في جيبه. تسارعت خطى البائع، تاركة وراءها كركرات متقطعة. انعطف يمينا، الى زقاق قصير، دون منفذ تبعه فيه، لكن الآخر كان قد ذاب وسطه.

تطلع إلى الأبواب المغلقة مندهشا. لم يسمع ضربات أذرعها الحديدية خلال تلك الثواني التي فصلته عن ناظريه، ويعرف ساكني الزقاق هذا.

جذبه رأس غزال علق فوق باب كبير، فراح يحدّق فيه طويلا. اهتز الرأس فجأة، وأخرج له لسانه. «إنهم الجنّ يعبثون بي». سحب أقدامه، وضحكة مجلجلة، شبيهة بضحكات أخيه، تلاحقه...

عاد إلى السوق، مترصدا عابريه. ترقبه الأعين. تطل الوجوه من الدكاكين، مشدودة اليه، تعلوها دهشة لرؤيته.

قاطعه ثلاثة صبية، يتطلعون اليه منذهلين. تذكر أنهم الذين أيقظوه من غفوته، يوم حضور بائع اليانصيب. (قد يعرف أحدهم بيته). اقترب منهم خطوة، فهربوا راكضين، تتبعهم خفقات أقدامهم العارية على الدرب الترابي. يصله رنين ضحكاتهم، فيهتز جسده المبلل به.

ارتسمت على شفتي بائع الدبس ابتسامة غامضة. (هل تواطأ مع بائع اليانصيب على خداعي؟). اقترب من البائع الذي ما فتىء يضحك. (كيف حالك يا حاج؟... أضعت محفظتك اليوم؟).

نظر جابر الى الدكان من خلف كتفي صاحبه، فالتفت البائع معه. كانت العتمة لا تظهر منه إلا أجساماً مختلفة في دجنتها. اتاه صوت، ضحكة، هزات تنكات فارغة، تنشر قرقعة قوية. قال البائع: «تريد أن تشتري شيئا؟». ثم أشعل مصباح دكانه. واجهته الأشياء المبعثرة على ارضيته، التي ظهرت أصغر بكثير مما ظنها. غمغم بصوت مختنق: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...».

عبر دكانه، ومقلتاه تلتهمان المارة، باحثا بينهم عن عدوه. وصل الى مؤخرة السوق. أفزعه النهار خارجه، فانقلب اليه ثانية...

تحلق حوله حشد من الصبية والمراهقين. صرخ دون كلمات «ما الذي تودّون سرقته مني؟». كانت هناك حلقة من العيون المتوثبة عليه، تضيق وتتسع حول خطواته المتعثرة، يبحث بينها، تارة، عن غريمه، وتارة ينكمش على نفسه، هلعا منها.

حضر، فجأة، رجل بعمامة بيضاء، فشق تلك الغمامة البشرية بذراعيه، ليتركها تتلاشى وسط السوق. رفع جابر رأسه، فرأى راقي امامه، يتلألأ وجهه فرحا. صاح به: «لقد أنقذتني» خفض راقي له رأسه.

- سأظل صديقك الى الأبد... أين تريد الذهاب؟
- لا أدري.. ولكنك خذلتني؟.
- كيف؟
- وعدتني أن أفوز بالجائزة الأولى، ثم نكثت بوعدك.
- لم أعدك بشيء. أنت الذي أخطأ في تفسير رسالتي اليك.
- ما الذي تقترحه عليّ الآن؟
- اترك جسدك العتيق واتبعني.
- إلى اين؟
- ستحل ثانية في جسد آخر جديد، في مولود آخر. ألا تريد البدء من جديد؟ تحمل كل ما تعلّمته، وتتقدم روحك خطوة أعلى نحو الرب.
- لكنني أريد جسدي هذا. ألا تعلم أننا سنبعث فتيانا بأجسادنا في الآخرة ثانية؟

- أرواحنا ليست ألا شرراً منبجسا من النار المتوقدة الكبرى. أعظم ما يحققه المرء أن يبلغ المصدر، فينطفىء فيه، أن يعود المسافر بعد اغتراب طويل الى وطنه، هناك حيث لا ولادة، لا موت، لا بعث آخر.
- اسكت ايها الكافر. «يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون»[1].
- تعال معي، تَرَ بعينيك أيّنا على حق.
- أنا لا أريد التخلّي عن جسدي. أنت لست إلا الشيطان متنكرا، جئت تغويني للكفر...
- لا يناسب هذا المكان نقاشنا.. لنذهب الى دكانك.
- ابتعد عني...

رتّل سورة الناس مرتين، وظل راقي واقفاً قربه، عاقفا ذراعيه فوق صدره. أشار الى دكانه، ثم مضى صوبه بخطى واثقة.

كان جابر محاصرا بجسدٍ يتطاير الشرر من احداقه وأسنانه، فوجد نفسه مدفوعا الى دكانه، الذي بدا له كآخر قلعة، بقيت لديه.

فتح عارضته، دخل راقي، فتبعه طائعا، ثم أنزلها وراءه وأقفل دكانه من الداخل... سمع الناس أصوات رجال يتحدثون بلغات عديدة، تلاها تكسر أشياء، وقرقعة، فاصطفاق حاد، كأنه انغلاق قوي لباب خشبي، ثم أعقبه سكون غامض.

كان المساء، آنذاك، قد حل في تلك المدينة الصغيرة...

وهران ـ الجزائر

(١) سورة المعارج.

دار الآداب تقدم

مؤلفات حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع
- الأبنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- الدقَل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- مأساة ديمتريو
- ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة.
- ناظم حكمت ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية
- أدب الحرب

(بالاشتراك مع د. نجاح العطار)